



زيارة مؤمن
ببلم ميشيل سليم كسيد

٢

وصف الكاتدرائية

« اذمي وخبري الكنية ، ان يشيدوا كنية

هنا ، ويتيموا التطوافات . »

كلمة العذراء لبرنادت - الظهيرة الرابعة عشرة

انتهيت من درب الآلام ؛ فلم لا احضر القديس ؟ ارتقيت درجات الكنية ، فوجدتها مزدحمة بالمصلين حتى الباب الاكبر . فاخذتهم وانتقيت مكاناً قصياً وراء احد الاعددة الضخمة ، لا اضيق احداً ، ولا يضايقني احد . واستكنت اسع القديس . وكانت الكنية هادئة مع ازحام الداخلين والخارجين . ولعلك تميل الى سماع وصف الكاتدرائية الشهيرة ، فهي بالحقبة ليست كنيسة واحدة ، بل واحدة فوق اخرى ، يتوسطها تاروس .

فالكنيسة الدنيا ، وهي الكبرى ، مشيدة على الطراز القوطي ، طراز القرن الثالث عشر ، مقامة على صخرة مرتفعة على جانبها الايمن مغارة الظهورات . وما تكاد تلجها حتى تأخذك تلك المنحنيات الرشيقة والتقوسات النخيفة ، والدعائم الهائلة الجميلة . وتجد الاعلام والرايات المهداة من الفرق والجيوش والجميات وغيرها الى الكنية هنا وهناك مدلاة من القف كالجوف البديعة ؛ ثم الاوسه والنياشين والرتب المكوية والبروات ، تكسو الجدران ، وترين المسالك . واذا ادرت بصرك نحو زجاج المناقد ، وجدت تاريخ السيدة العذراء لها المجد مرسوماً على الواحها . وذلك ببسط قضايا الجبل

بلا دنس ، منذ الخليقة الى قرآز بيوس التاسع السيد الذكر . ثم هناك خمسة معابد على كل جانب منها . وفي كل منها مذبح كبير . وكل معبد يضم عادة في نافذته ايقونة عليا كبيرة ، واخرى تحتها صغيرة ، وتمثال قديس على المذبح ، وبعض صفحات سريرية نذورية . وكل ايقونة تمثل حادثة من حوادث الكنيسة الكبرى . وعلى الاغلب تمثل الايقونة العليا برنادت وحوادث لورد العجائبية وفي مقدمة الكنيسة عدة مذابح اخرى تألف كالسابقة . وجميع هذه لا تبدأ بها القداسات ايام الزيارات لامتلاء لورد بالكهنة الوافدين من جميع الانحاء .

ونصل الى الناوروس (Crypte) ، الذي يمتد تحت الكنيسة العليا مسافة طويلة ، وعند ما تدخله تجد في مدخله ايقونة كبيرة تمثل السيد الذكر البابا القديس بيوس العاشر ، يواجهه تمثال هامة الرسل واول رئيس للكنيسة الرومانية المقدسة ، القديس بطرس . وهو نسخة لنصبه في القاتيكان ، الذي صنعه لاون الاول ، بعد تقهر اتيلا ومن العادة ان تقبل قدم التمثال اليسرى . ولكنني لم ألتصقها ، بل وقفت وصليت وتيممت صلوة قصيرة

بعد هذا سير في دهليز طويل ، سعت ثلاثة امتار ، وفي متناه الناوروس وفيه خمسة مذابح كبيرة ، على كل منها نصب قديس ، وعلى كل زجاج نوافذه رسوم حوادث ملونة كما في الكنيسة العليا والناوروس ساكن هادى لا يدخله إلا طلاب التأمل والاعتراف ، أو لاجل مباركة اشياء تذكارية ، ار من يريد الرياضة الروحية . واهم ما فيه تمثال البتول الطاهرة على المذبح الرئيسي ، وقد قالت الطوباوية برنادت انه اكثر النصب شهاً بالعذراء في ظهوراتها .

واذا انتهيت من الناوروس ، وانحدرت باي السلمين الجانبيين الى الكنيسة السفلى ، المعروفة بكنيسة الوردية ، تراها على شكل مستدير بديع ، وبها خمسة عشر مذبحاً عظيماً من الرخام والنحاس . وتضم من المعابد والايقونات ، وزجاج النوافذ المصور وسواها ، ما يعادل ما في الكنيسة العليا .

مغارة الخوارق والياه المقدسة

« اذهي اشري من العين واغثلي »

للظهوره التاسعة

اما المغارة التي ظهرت فيها العذراء . المجيدة للفتاة برنادت سوبيروس ،

ثاني عشرة مرة ، فهي تقرة في صخرة عظيمة تعلوها الكهنة الكبرى ،
سوداء الحجارة من دخان الشموع المشعلة على مدى هذه الاعوام الطويلة . وقد
اقم في المكان الذي اشارت اليه الطوباوية برنادت كموقع ظهورات المدراء ،
نصب بالحجم الطبيعي ، يعلو ثلاثة امتار عن الارض . وقد اكتظ سقف الشجرة
وخارجها بالمكايكز والوكائز ، وادوات اخرى كثيرة ، مما تركه المرضى الذين
نالوا نعمة الشفاء فيها وعلى المدخل حاجز ذو فمتحتين للدخول وللخروج .
وقد دخلت عصرَ ذلك اليوم - قبيل الزياح القرباني - مع بعض الزوار .
وهم يسرون في صف ، واحداً بعد آخر ، يراقب هذا النظام بعض الكهنة
خيفة الازدحام والتشويش . لاسيا وذلك المكان يبعج بالالوف ولجت
المدخل وييدي شمة اشعلتها في عملة الشمع . فالتيت صخرة فاحمة اللون
دخناء ، يلثمها الزوار في مرورهم ، تقع تحت التثال . فدنوت في رهبة
وسكون . وادنيت شفتي فلثمتها .

وانتهيت الى الباب التالي ، فاذا بي امام اجران المياه تعلوها لولاب تحمل
اليها ماء الصخرة العجائبي في قساطل ولم كان خجلي عظيماً ، وانا دون
طاس للشرب . فما العمل ؟ احترت في كيف عاي اتداري موقفني الحرج .
ووددت ان اقلت من هذه الورطة . ولكن الجبل المشيد للطريق يحول دون
المهرب فيكأني في حبس . . . ولم يتوكني تدفق الزوار ان اتريت . فاندفت بضغظهم
الى الامام نحو الاجران . فسرت مضطرباً على مضض . ودنوت من لولاب تناولت
منه بكفي شرقة رشفتها على عجلة ؛ وهممت نحو المنفذ !

لوردر في العالم

كما يجدر التنويه به ، ويشير الى مكانة لوردر خارج العالم الكاثوليكي ،
ان زرافات عديدة تهبطها من اتباع وارباب المذاهب المنشقة . ولقد شهدت
حادثه من ذلك النفوذ البليغ . فقد استوقل القطار الذي قدمت به ، في محطة
بايون (Bayonne) ، اسقف وسبعة كهنة ، وما ينيف عن العشرين من
الالمان البروتستان . وكان من حظنا حافظنا ان توهمل باكثرهم . وكان بعضهم
على مقربة مني ، وانا في ملك العربة ، اسرح النظر وامته من النافذة بتناظر

قرفة البهجة الساحرة .

كثيراً ما يتعرف الانسان في تجواله الى رقصاء السفر ، وكثيراً ما يعتمد الحديث معهم ، أو قد تجر اليه الظروف او حادثة ما . ولست ادري كيف اتصل بيننا وصل الكلام . فوجدتني اخوض معهم في غمار حديث طريف - والحديث ذو شجون كما يقولون - فطائفاً تقبّحهم مبعثاً الى آخر ونطرق موضوعاً ننقله الى سواه ، قتلاً للوقت وطلباً للتسلية . فحضنا في ذكر المانية كطلب سياحة وتجوّال ، فزيناها لي . وامتد بنا الكلام الى تقعد البلدان الاخرى كثره وملهى ، فالى الحرب العظمى ، ونصيب الدول فيها وسواها . واتفق ان وقف القطار في المرء قبل لورد لاسر ما ، ونحن على رمية منها . فسألني احدهم اين اطلب . فبئته بغيثي . وما لبثت بدوري ، بهذه المناسبة ، ان سأله اين يقصدون . فاظهروني انهم ايضاً على قصدي . لان هذه الايام هي اوان الزيارة الوطنية (الافرنسية) وبها ترهب لورد وقيس في حلق زاهية نضرة من المراسيم والاحتفالات الدينية البهية الآخذة بمجامع القلوب . فتعجبت عمداً - كما استجر مقالته - والمحت الى بروتستانتيتهم . فلأجابني ان ليس بهذا عجب . وليس المذهب « بالثي . المهم في عرفه » ، ولا غرابة ، فان هذه هي المرة السابعة التي يتزل بها البلدة المقدسة . وسواء عنده الاديان اجمعها . . . ثم ذهب ييسط لي بأسهاب روعة الحفلات الدينية ونشوة جلالها التي تمثري مشاهديها . وابلغ في سرد ماية ما يكثف المرء من الرهبة والتأثر اوان منح بركة المرضى والمنكوبين التصاء . وافاض انه ، وهو غير متشيع لدين ما دون آخر ، « تؤثر فيه مشاهد لورد الى درجة عظيمة ، قلما تصّره في سواها ، بل يود ان لا تقلت منه فرصة قط لحضور احتفالاتها وزياراتها الالهية ، وأشار الى انه يكاد يصدق جميع ما تهتّر به لورد حيناً بعد آخر ، من العجائب وحوادث الشفاء . النادرة الخ » . . . الى ان وقف القطار في البلدة المنشرة ففتحتم كلامه بان دعائي الى تزّل هيتز الشهيد ، حيث هم عازمون « كي نكون معاً » . فاعتدت له يوعدي احد الكهنة بموافاته الى تزّل آخر . وتأسفت لعدم سرافقتهم . وتزلنا وتفارقنا ، وكان آخر الهدبهم .

ولست في حاجة الى ان اشير الى ان التزل المذكور يزدحم عادة باتباع الفرق البروتستانية من الشعوب الكسرية ، وهذا ما علمته اثناء مقامي بلورد ، بما يدل على سمة نفوذ لورد بين الشعوب قاطبة ، ومبلغ صيتها . وقد شهدت عدداً عديداً من قسوسة البروتستان اثناء التطواف القرباني يلتقطون مراسيمه وفرائضه بالآلات الفوتغرافية والسينائية .

السينما الدينية

وفي لورد شهدت لأول مرة شريطاً سينمائياً دينياً ، كان عظيم التأثير عليّ . فقد عرضت على اللوحة الفضية امتشادات بعض القديسين الاتقياء ، وهم يبذلون انفسهم بلا ادنى مقاومة في سبيل الدين المقدس . فناجيت نفسي : متى ارى امثال هذه الافلام ، تتبوأ مكانها على مراحح السينما المعهودة . وبهذه المناسبة ، اذكر ان في باريس جمعيات تقوية تألفت خصيصاً من كبار الافرنسيين العلمانيين والدينيين ، لمراقبة الافلام العامة ، ونشر الملاحظات عنها في جرائد ومجلات خاصة . وبين يدي الآن مجلة « الصلابة الافرنسية الكاثوليكية »^١ وبها تقرير عن المؤتمر الثاني للجمعية السينائية الكاثوليكية به بحث كافر عن الوسائل اللازمة لنشر الثقافة والآداب الكاثوليكية بواسطة السينما . ثم مراقبة الافلام الاجرامية . وتحذير الجمهور من شرها اللعين . وانا لأأمل ان يتد أثرها ، ويقوى حولها ، فتسز بذلك آدابنا ، وتسمو اخلاقنا . وان ذا لقریب!

اللبتاني الوحيد

بما اذكره بجرقة ومرارة ، ولن اغفله قط ، هو كم كانت صدمتي عظيمة حين تحققت اني كنت السوري اللبتاني الوحيد ، وسط تلك الخلائق الكثيرة . فقد استوضحت جميع من اتصلت بهم من كهنة ودينويين وتصفتحت جميع الوجوه ، ونقبت جميع الجماعات ، عساي اقف على وطني لي . فكنت كصاحب بنية تائه ، اقتحم تارة هؤلاء ، واخترق اولئك اخرى . وكانت النتيجة واحدة .

ولست انسى نخيلي ، وقد وقع في روحي ما صغر نفسي في عيني ، حين علمته ،
وحيداً ، لا عشير لي من ابنا. وطلي يقدم معي للبتول الطاهرة شعائر الزيارة ،
ويقوم ببعض فرائضها . وكيف لا أتأثر ، وقد بلغ جمع الزوار - حبا
قرأته في جريدة «مغارة لورد» - تيقناً وتأميناً ، أيام الزيارة ، ليس بينهم
من ابنا. فينيقية سراي ا اجل كيف لا تتحجج نفسي والحقيقة المزملة تجايبني بما
فيها من قسوة ! لم يدفع عني لطف وايناس ارباب الفندق ، وجميع من تعرفت
بهم ، غائلة الكتابة في ذكرى تعبير ابنا. بلادي نحو والدة الاله ، الاله الذي
بذل نفسه ضحية زكية لئدائنا !

فكرت في هذا الامر . وتساءلت لماذا لا تذهب وفود زوار من بلادنا
الى لورد ، ولماذا لا تقتدي بفرنسة . فيذهب جمع من سورية ولبنان ، كما
تذهب الجسوع من اتالم فرنسة ومقاطعاتها المختلفة ؟ احياء في الدين ، أم ضعفاً
في الايمان ؟

ثم لم لا نكمل امراً ، ان لم يكن فريضة محتمة ، فادنى ما فيه انه
مظهر ديني جليل ، فنقوم به اسوة بسوانا من الامم والشعوب . انحال فيه هضبة
وسهابة ، وما ان اعظم الدول واحقر الشعوب ، تأتيه جزلة معتارة ؟ وكفى
بفرنسة قدوة - وهي التي يعدها بعض ضمار العقول موثلاً الاحساد وكنف
اللاذينية - اجل فيها لنا مثال ناطق ، ومن شهد موسم الزيارة الاهلية
الافرنسية ، رابصر تلك الربوات الوافدة على المدينة المقدسة من شتى الاقاليم ،
اقر صاغراً مفعماً بما يسود الشعب الافرنسي النبيل من العراطف السديفة ،
واقنع ايضاً ان الشعب ايضاً من اشد شعوب الأرض تمكاً بالدين وتعلقاً
باهداب تعاليم الكنيسة المقدسة . ولقد شهدت بعيني ، في لورد وليريو ، ما
شعرت به في باريس من هذه المظاهر ، في احتشاد واكتظاظ الكنائس المدينة ،
في ساعة الظهر ، بل في اي برهة من النهار ، مجامير المتجدين ، مما آيد لي
تعلق الافرنسيين واعتصامهم بروح الدين . وعليه ما احوانا ان نكون نحن ،
ابنا. منبت الانبياء والرسل ، في الاقتداء بفرنسة ، وما احوانا ، ونحن تحت
اشرافها وانتدابها ، ان نعد انفسنا بمثابة اقليم من اقاليمها ، فنوفد أيام الزيارة

الاقرفية جمياً يقدم لسيدة لورد الطاهرة ، فرائض الزيارة ؟
وقد علمت اتفاقاً هناك ، من صاحب التزل ، ان المنسيور عقل — ان لم
تخدعني ذاكرتي — ام لورد ، متصجاً عائلته الكريمة ، فاقام بها ، العام
المنصرم ، شهراً وبعض الشهر . فعبداً لوسى سيادته ، بما له من نفوذ
ومكانة ، في تأليف جماعات من شرقنا العزيز لزيارة سيدة لورد !

المبارمة

ولجّ القطار مزججاً بين الهضاب والادوية ، قاصداً رين عاصمة بريطانية .
ولمت كنيسة النذراء ، سيدة لورد ، من خلال فجوات الجبال ، وبرق صليبها
الذهبي اللامع على محياها الزاهر ، فسرت في المسافرين رهبة وروعاً .
واستوت عليهم رعشة هزت ايديهم هزاً ، فارتفعت بمكون راسمة مجشوع
اشارة الصليب المقدس . . . وشاربت اعناق ، وحملت اعين من خلال نوافذ
حافلات القطار ، ومررت بجأت المسابح بين الاصابع ، فتمتمت جميع الشفاه
كلت خافتة مبهمة ، وامتلأت العيون ببعض دمعات حزن وفروح . وارسلت
تهنيدات حرى صمدت جميعها الى العلي كنشوز حمد وشكر وتقوى !
ونظر الحفل المعتشد في مسالك الحوافل الى بعضهم بعضاً ، كأن ثمة لسان
حالمهم يتناجي البارئ تعالى : هل من عودة لهذه الربوع المقدسة ؟
وكان آخر مشهد من لورد ، لحظة ما هي بالثانية ؛ مشهد حشد الزوار في
باحة الكنيسة ، سجداً خشوعاً ، امام ابن الله المتأنس ، المطاف به في الزياح
القرباني الموثر .

وامن القطار ، فاستمرت لآخر مرة عن الانظار كنيسة لورد ووليها
الذهبي ، وراء الشامخات الثابسات ؛ والجمع لم يبرح المنافذ محلقاً متمتماً
زافراً . . . وفي الافكار جانحات ، وفي الصدور إهترازات ، وفي الاقنعة آبال
وتأملات . . .

يا سيدة لورد صلي لاجلنا !